السؤال الثالث:

نقرأ في الإنجيل: أنَّ امرأة كنعانية جاءت إلى المسيح وسألته أن يشفي ابنتها المجنونة، فقال لها: «لَيْسَ حَسَناً أَنْ يُؤْخَذَ خُبْزُ ٱلْبَنِينَ وَيُطْرَحَ لِلْكِلَابِ» (متى ١٥: ٢١-٢٦). وكذلك أنَّ امرأة سامرية، جاءت لتستقي من البئر وكان المسيح هناك، فقال لها أعطني لأشرب، لأنّ تلاميذه كانوا قد مضوا إلى المدينة ليبتاعوا طعاماً «فَقَالَتْ لَهُ ٱلْمَرْأَةُ ٱلسَّامِرِيَّةُ: كَيْفَ تَطْلُبُ مِنِّي لِتَشْرَبَ، وَأَنْتَ يَهُودِيٌّ وَأَنَا ٱمْرَأَةٌ سَامِرِيَّةٌ؟» لِأَنَّ ٱلْيَهُودَ لا يُعَامِلُونَ ٱلسَّامِرِيِّينَ» (يوحنا ٤: ٧-٩).

يتّضح من الاطلاع على الآية الأولى أنَّ المسيح يريد عدم مخالطة اليهود للأجانب لأنه خاطب الكنعانية بقساوة. ويتَّضح من الآية الثانية أنَّه طلب من امرأة سامرية أن يشرب فاعترضت على طلبه كما اعترض هو على الكنعانية، فكيف يتفق ذلك؟

م.ب. حلب - سوريا

لقد وقف كثيرون من الناس حيارى أمام قصة المرأة الكنعانية. ولكي يتسنى لك أن تلّم بالموضوع، أورد لك القصة كما جاءت في الإنجيل: «ثُمَّ خَرَجَ يَسُوعُ مِنْ هُنَاكَ وَٱنْصَرَفَ إِلَى نَوَاحِي صُورَ وَصَيْدَاءَ. وَإِذَا ٱمْرَأَةٌ كَنْعَانِيَّةٌ خَارِجَةٌ مِنْ تِلْكَ ٱلتُّخُومِ صَرَخَتْ إِلَيْهِ: «ٱرْحَمْنِي يَا سَيِّدُ يَا ٱبْنَ دَاوُدَ. اِبْنَتِي مَجْنُونَةٌ جِدّاً». فَلَمْ يُجِبْهَا بِكَلِمَةٍ. فَتَقَدَّمَ تَلَامِيذُهُ وَطَلَبُوا إِلَيْهِ قَائِلِينَ: «ٱصْرِفْهَا، لِأَنَّهَا تَصِيحُ وَرَاءَنَا!» فَأَجَابَ: «لَمْ أُرْسَلْ إِلَّا إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ ٱلضَّالَّةِ». فَأَتَتْ وَسَجَدَتْ لَهُ قَائِلَةً: «يَا سَيِّدُ أَعِنِّي!» فَأَجَابَ: «لَيْسَ حَسَناً أَنْ يُؤْخَذَ خُبْزُ ٱلْبَنِينَ وَيُطْرَحَ لِلْكِلَابِ». فَقَالَتْ: «نَعَمْ يَا سَيِّدُ. وَٱلْكِلَابُ أَيْضاً تَأْكُلُ مِنَ ٱلْفُتَاتِ ٱلَّذِي يَسْقُطُ مِنْ مَائِدَةِ أَرْبَابِهَا». حِينَئِذٍ قَالَ يَسُوعُ لَهَا: «يَا ٱمْرَأَةُ، عَظِيمٌ إِيمَانُكِ! لِيَكُنْ لَكِ كَمَا تُرِيدِينَ». فَشُفِيَتِ ٱبْنَتُهَا مِنْ تِلْكَ ٱلسَّاعَةِ» (متى ١٥:٢١-٢٨).

ويبدو من ظاهر القصة أنَّ موقف يسوع لا ينسجم مع ما عُهد فيه من لطف ورحمة. ويظهر موقفه الغريب ثلاث مرات: أولاً: حين صمت «ولم يجبها بكلمة» وثانياً حين قال: «لم أُرسَل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة» وثالثاً حين قال: «ليس حسناً أن يُؤخذ خبز البنين ويُطرح للكلاب». ويخيل لنا أنّ يسوع في هذه القصة، ليس يسوع الرقيق

الحنون، الذي صوَّره الإنجيل، والذي استجاب دائماً لصيحات المحتاجين والملهوفين، والذي تجسدت فيه الرقة والعذوبة واللطف نحو جميع الناس. وكأنه ليس يسوع الذي خلّد للأجيال مثل السامري الصالح، الذي رسم فيه للإنسانية بخطوط بارزة معنى الخير والإحسان والبر بالقريب، وأهاب بالناس أن يتخطوا العوائق العنصرية، حين يواجهون حاجات البائسين والمحتاجين. إنّه في الواقع لبعيد جداً أن نتصور يسوع يمتنع عن إسعاف امرأة، لمجرد أنّها غريبة عن بيت إسرائيل؟

فكيف نفسِّر هذا الموقف الغريب؟ لقد حاول بعض المفسرين التخفيف من حدة كلام يسوع تارة، وتبرير مسلكه نحو المرأة تارة أخرى. فقيل إنّ الكلمة التي استعملها يسوع للدلالة «على الكلاب» وردت في صورة التصغير، ويُقصد بها الجراء المدللة التي يربونها في البيوت. وقد نطق يسوع بهذه العبارة بأسلوب فَكِهٍ للمداعبة والمباسطة. ولا شك في أنَّ عذوبة مظهره ورقة لسانه وطلاوة حديثه قد لاشت من الألفاظ مظهرها الخارجي الجاف. ولكن يبقى بعد هذا أن نعلل الموقف السلبي الذي وقفه يسوع حيال المرأة، وإنكاره حق الخارجين عن رعوية إسرائيل في التمتع برسالته، بقوله: «لم أُرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل»

وقيل أيضاً تعليلاً لمسلك يسوع إزاء المرأة إنّه أراد أن يجرب إيمانها ويمتحنه. وكأنما أراد أن يرغمها، لتكون أشبه بالأرملة الملحة، التي انتزعت الإنصاف من قاضي الظلم باللجاجة والإلحاح. ولكن عهدنا في يسوع أنَّه غير هذا، فهو لا يرضى أن يجرب إيمان امرأة في ساعة من الشدة والضيق، ولا أن يمحصها بهذا الأسلوب. ولا بد أنَّ ضمائرنا لا ترتاح إلى هذا التعليل، الذي لا ينسجم مع شخصية يسوع العذبة الحلوة. سيما وهو قد عرف سرائر الناس، وأدرك لأول وهلة مقدار إيمان هذه المرأة، ولم يكن في حاجة إلى الضغط عليها ليعرف مدى إيمانها وقوته.

ومما قيل أيضاً في تأويل القصة أنَّ صمت يسوع حيال المرأة مرجعه التفكير في ما عسى أن يفعل، وكأنما دخل في حوار صامت مع نفسه، أيتسع مدى حنانه فيتعدى حدود بعثته وتشمل رسالته العالم الوثني؟ وليس يهون علينا قبول هذا الشرح، ولا التسليم بأن يسوع فكر هكذا. أو أنه راح يوازن بين ما يفعل وما لا يفعل، وهل يعطي المرأة سؤلها أم لا يعطيها.

في اعتقادي أنَّ أفضل تأويل لتصرف الرب يسوع هو ما يلي: كانت نهاية أيامه على الأرض تقترب، لذلك كان في حاجة ماسة إلى عزلة قصيرة بعيداً عن الجماهير، ليجهز تلاميذه لهذه النهاية بتعاليمه وإرشاداته. حتى إذا جاء الصليب كانوا على استعداد لفهم هدفه. ولم يجد مكاناً هادئاً في فلسطين، فأينما ذهب كانت الجماهير تلاحقه. وفوق هذا، كانت السلطة الدينية اليهودية قد نبذته وراحت تطارده، فاتجه نحو الشمال، وتخطى الجليل إلى تخوم صور وصيداء. فهناك كان بعيداً عن أعين أعدائه الفريسيين، كما أنّه لم يكن منتظراً أن تتبعه الجماهير إلى أرض الامة الوثنية. وكانت أخبار معجزاته وأعماله الشفائية، قد ذاعت في تلك التخوم.

ولكن ما أن علمت المرأة المنكوبة بقدومه حتى أسرعت إليه تلتمس منه شفاء ابنتها المجنونة. وكانت تصرخ بإلحاح طالبة العون.

وفي البداية ظهر يسوع وكأنه لا يوليها أي اهتمام. وإذا انزعج تلاميذه من صراخها، طلبوا إليه أن يعطيها سؤلها ليستريحوا من صراخها. ولو نظرنا بعمق إلى المسألة، لوجدنا أنّ تلبية رغبة شخص لمجرد

التخلص من إزعاجه لا يمكن أن يتفق مع مبدأ المسيح. فقد عرف عن يسوع أنَّ شعوره ممتلئ بالعطف والحب والشفقة.

ولعل الموقف كان محيراً بالنسبة لرسالة المسيح، فقد امتلأ قلبه بالشفقة على المرأة المسكينة. وكان المتوقع أن يقول لها: هاتي ابنتك فأشفيها. ولكن لو أنه فعل لعادت المرأة راضية مغتبطة بشفاء ابنتها، مذيعة بين الناس قصة ذلك الطبيب العظيم الذي جاء من بلد غريب. وهكذا كان سينتهي الأمر عند هذا الحد، ويبقى يسوع في نظر المرأة ذلك الشافي الماهر الطيب القلب. ولو أنَّ يسوع اكتفى بإعطاء المرأة سؤلها تواً، لانقطعت بينه وبينها كل صلة، ما عدا أثر الصنيع الحسن الطارئ الذي عمله لها. ولكن المسيح لم يشأ أن يمنحها جميلاً واحداً عاجلاً، بل أراد أن يقدم نفسه لها مخلصاً ورباً، وليس طبيباً من جنس غريب، أو أميراً من نسل داود. ولعله «لم يجبها بكلمة» لأنه يحب أن يطلبه الناس لذاته وليس لما ينالهم من خيراته.

لما سأله تلاميذه أن يجيب طلبتها، لا حباً بنفعها، بل للتخلص من صياحها، رد وساطتهم بالقول: «لَمْ أُرْسَلْ إِلَّا إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ ٱلضَّالَّةِ». وهذا الجواب يشير إلى خدمته الشخصية وهو على الأرض في

الجسد يعظ ويصنع العجائب. ولا يشير البتة إلى عمله، باعتبار كونه فادياً ووسيطاً بين الله والناس. وقد قضى المخطط الإلهي أن ينادي بالإنجيل بين اليهود أولاً، لإتمام المواعيد الإلهية المقطوعة لإبراهيم وإسحق ويعقوب. والواقع أنه لو عمل بين الأمم أولاً لرفض اليهود كلهم رسالته، لشدة تعصبهم وكرههم للأمم.

فيما المسيح يفكر في هذه الأمور انطرحت المرأة الكنعانية عند قدميه قائلة«يا سيد أعني» ولكن يسوع إذ أراد أن يخلق في قلبها الإيمان الحقيقي، قال لها: «لَيْسَ حَسَناً أَنْ يُؤْخَذَ خُبْزُ ٱلْبَنِينَ وَيُطْرَحَ لِلْكِلَابِ» والكلمة «كلاب» في الأصل اليوناني لا تعني الكلاب المتشردة في الطرقات والبراري، بل الجراء المدللة التي تعيش في البيوت. والمسيح بهذا القول لم يوصد الباب في وجه المرأة. وقد لمست المرأة القصد الصالح في لهجة المسيح، فرفعت رأسها وقالت: «نَعَمْ يَا سَيِّدُ. وَٱلْكِلَابُ أَيْضاً تَأْكُلُ مِنَ ٱلْفُتَاتِ ٱلَّذِي يَسْقُطُ مِنْ مَائِدَةِ أَرْبَابِهَا».

أمام هذا الجواب الرائع، أضاء وجه المسيح بالسرور لأجل إيمانها الذي تبلور سريعاً، فمنحها ما أرادت. ونحن نلاحظ عدة أمور في هذا الإيمان الذي ربح المعركة:

١ - كان إيمانها مرتبطاً بالمحبة. . . محبة ابنتها، إذ اعتبرت شفاء ابنتها جزءاً من كيانها، رغم أنها كانت أممية. وبهذه المحبة استطاعت أن تتحمل الصد الظاهري البادي من المسيح في البداية. وهذه المحبة قرَّبتها من يسوع، ولا يمكن أن نجد ما يقربنا إلى الله أكثر من المحبة.

٢ - كان إيمانها يتزايد كلما اقتربت من يسوع. ابتدأت حديثها بتسميته «ابن داود» وكان هذا لقباً أرضياً. وهكذا كانت نظرتها الأولى إلى يسوع. ومن جهة الشفاء لعلها ظنته أحد السحرة. لكن هذا الإيمان قادها إلى الشعور بجلال الشخص الذي تكلمه، فسجدت له قائلة «يا سيد». . . وهذا ما يسر قلب يسوع. فهو لا يريد أن يقترب الناس إليه طالبين، قبل أن يقتربوا نحوه ساجدين مصلين. وعندما تحول الطلب إلى صلاة وسجود، نال رضى السيد.

٣ - تميز إيمانها بمثابرة لم تتراجع أمام الصد. فبعض الناس يصلّون، ولكن حين لا يتلقّون الإجابة السريعة يفشلون ويرتدون. وبعض الناس يأتون قائلين لعلنا ننال ما نطلب. أما هذه الكنعانية فقد جاءت وهي مصرة على أن تنال طلبتها.

٤ - تدل القرائن على أنَّ إيمان هذه المرأة تميز بطابع الابتهاج، فمع أنها كانت متضايقة جداً، ولكنها مع ذلك كان في وسعها أن تبتسم، والله يحب الإيمان المبتهج، الإيمان الذي يضيء بنور الرجاء والأمل.

هذه صفات الإيمان، الذي ينال البركة. إيمان مرتبط بالحب، إيمان يتزايد مع القرب من يسوع، إلى أن يصير سجوداً وعبادة. إيمان يتصف باللجاجة والصبر، والأمل الذي لا ينطفئ. إيمان مبتهج بالرجاء الحي. هذا هو الإيمان الذي يجد إجابة أكيدة، عندما يدعو ويرجو ويصلي.

أجل، ففي لحظة، في طرفة عين تلاشت الأوهام من نفس الكنعانية، فلم تعد تنظر إلى يسوع، كطبيب أو ساحر يهودي يستطيع أن يشفي ابنتها، بل فهمت أنَّه الرب من السماء وأنَّه يمكنها أن تكون واحدة من صحابته في ذلك الملكوت الواسع الذي يتعدى كل الحواجز القومية والعنصرية، الذي جاء ليؤسسه. وعرفته مخلصاً ورباً، والتقت به في عالم الفكر الصامت، الذي فيه تتفاهم القلوب. وآمنت به، لا كأمير من سلالة داود، بل كرب يمنحها ذاته كخبز الله الواهب حياة للعالم، لا الفتات الساقط من المائدة.